الأثر

عبدالله عمر باوشخه

الأثر ..

هو النتيجة الباقية بعد الفعل، وهو ما يبقى بعد العطاء، هو الخلاصة، والنتاج، وثمرة المواقف والظروف.

في لبّ الأشياء، تتشابه الرموز وإن اختلفت أسماؤها، تشعر أنها من عائلةٍ واحدة أو مفرداتٍ تتآزر لتؤدي إلى معنى متقارب.

في علم الرياضيات، يقوم الترابط على فكرة التلاقي بين عناصر أو عمليات مختلفة، عددًا كانت أو متغيّرًا أو مشتقةً أو دالة، إذ يمنح هذا الترابط النظامَ اتساقًا وتوازنًا، فالعامل المشترك الأكبر مثلًا ليس رقمًا فقط، بل رابطٌ يوحّد الأعداد في نسقٍ واحد، وهكذا، في كل فروعها، نجد فكرة العنصر الموحِّد حاضرةً بشكلٍ ما (رقمٌ، متغيّر، ثابت، نقطة أو حتى نهاية مشتركة) فالرياضيات في عمقها ليست علم الأرقام، بل علم العلاقات الخفية بين الكثرة.

وفي الهندسة، يظهر هذا المبدأ في صورته المكانية، فهي علم العلاقات بين الأشكال والعناصر، إذ لا قيمة لنقطةٍ أو خطٍّ أو زاويةٍ ما لم ترتبط بغيرها، فالتلاقي هنا ليس مجرّد تماسٍّ مكاني، بل علاقة تحفظ التوازن بين الكيانات، النقطة الواصلة بين الخطين، والخطّ الذي يجمع المستويين، والمركز الذي تتآلف حوله الدوائر، والزاوية التي توحّد الاتجاهات، إنها ليست علم الأشكال، بل لغة الانسجام في الفضاء، حيث ترتبط الأشياء كما ترتبط الكلمات داخل الجملة لتكوّن معنى واحدًا متماسكًا.

أما في المحاسبة، حيث يلتقي الرقم بالمعنى الاقتصادي، يتجلّى هذا الترابط في العلاقات المالية التي تربط عناصر متفرقة لتكوّن نظامًا واحدًا متوازنًا، فالحسابات ليست مجرد تكرار للأرقام، بل تناغمٌ في العلاقات المالية، المعاملات تتّحد في الأثر، والعمليات تتقاطع في الحدث، والقوائم تلتقي في العناصر، والشركاء يتوازنون بين العائد والمخاطرة، إنها منظومة تحفظ العدالة الرقمية بين المدين والدائن، وتحوّل الحساب إلى لغةٍ للإنصاف الاقتصادي، كما أن الجبر لغةٌ للإنصاف العددي.

وفي عالم القانون، لا يبتعد المبدأ ذاته كثيرًا، فالرابط القانوني هو ما يجمع بين الإرادة والمسؤولية والنتيجة، فالعدالة نفسها قائمة على توازنٍ مشترك بين الناس، لكل فعلٍ أثر، ولكل حقٍّ ميزان، ولكل التزام طرفان متكافئان، القانون في عمقه رياضيات العدالة، تتقاطع فيه الإرادات كما تتقاطع الخطوط، وتتّحد الحقوق كما تتّحد الأعداد في عاملٍ مشتركٍ واحد.

وفي الطب، يتجلّى المبدأ ذاته بصورةٍ حيّة نابضة، فالحياة لا تقوم إلا بتكامل الأعضاء وتبادل الأدوار، لا خلية تعمل وحدها، ولا عضو يعيش بمعزلٍ عن الآخر، الدم يشارك الغذاء، والعصب ينقل الإشارة، والهرمون ينسّق الإيقاع، وكلّها تتعاون لتحقيق غاية واحدة، وهي حفظ الإنسان حيًّا ومتّزنًا، إنه أعظم تجسيدٍ للفكرة الموحِّدة، نبضٌ يجمع الكثرة في وحدةٍ متناغمة.

فيما تتحد الورود والأشجار والنباتات في انسجامٍ شامل، في الضوء والماء والهواء والجذر والتربة واللون والإيقاع، لكنها قبل ذلك كله تشترك في الغاية، وهي أن تمنح الحياة جمالًا، وأن تذكّرنا بالاتزان والتكافل، إنها تقول بلغة الصمت، الحياة لا تُزهر وحدها، كل ورقة تحتاج جذراً، وكل زهرة تحتاج ضوءًا، وكل غصن يحتاج ظلًّا، فالنباتات لا تعرف التفرّد، فجميعها تعيش على إيقاعٍ واحد، تتفتح الوردة حين تشرق الشمس، وتنحني حين تغيب، وتتساقط أوراق الشجرة حين يبرد الخريف كما لو كانت تتنفس مع الأرض، هناك ساعة داخلية تشترك فيها كل الكائنات الخضراء، تدق على إيقاع الخلق، في دورةٍ دائمة من موتٍ ونماء، كما أن الكلوروفيل تلك المادة الخضراء في الأوراق، هي العامل الكيميائي في كل نباتٍ حي، حيث بها يتحول الضوء إلى غذاء، والهواء إلى حياة، مهما اختلفت الألوان والزخارف والأنواع، تبقى (الخُضرة) رمز الوحدة بين النباتات، لونٌ واحد يعلن عن نبضٍ واحد إنه الحياة.

وهكذا، في كل علمٍ من علوم الحياة، يظهر المبدأ ذاته (التكامل) الذي يوحّد الكثرة في نظامٍ واحد، فإذا كان ذلك في الأرقام والأجسام والأنسجة، فكيف لا يكون في النفوس والعلاقات؟

فليس غريبًا أن يكون الفضل بين الناس قائمًا على البقاء والاستمرار عبر التغافل والصفح، وأن تكون الغاية منه تكوين رصيدٍ من القيم والمواقف المشتركة التي تضمن توازن العلاقات، فهو ما نحفظه من القيم، وما ندّخره من التجارب، وما نصونه من الروابط، كي لا تنقطع دورة الحياة بيننا وبين من نرى أهمية بقائهم في دائرتنا.

تلك المعاني أشبه بالفسيلة التي جاءنا الأمر بغرسها حتى في لحظات النهاية، رمزٌ للحياة المتجدّدة رغم انطفاء العالم، ودليلٌ على أن الأمل لا يُقاس بالزمن بل بالفعل، إنه تذكيرٌ بأن الاستمرار في العطاء هو بقاء، وأن الحفاظ على العلاقات في أوجها نوعٌ من الغرس الدائم للحياة.

تلك القيم تمتدّ إلى كل علاقةٍ إنسانيةٍ تقوم على المشاركة والتراحم، كالصداقات، والأخوّة، والزمالة، وعلاقات الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء.

وجوهرها دعوةٌ إلى حفظ الجميل، وعدم محو الفضل بخلافٍ عابرٍ أو موقفٍ طارئ، فالحياة لا تستقيم بالعقود وحدها، بل ببقاء الودّ حاضرًا في الذاكرة والسلوك، لأنه الوقود الأخلاقي الذي يمنح العلاقات طاقتها واستمرارها.

فالفضل ليس كلمةً تُقال في ختام المودّة، بل رصيدٌ إنسانيٌّ متراكم نحفظه في خزائن الذاكرة، ونُدّخره

في حصّالات القلوب، ونستحضره عند الحاجة كما تُستحضر المدّخرات في أوقات الشدّة.

ولأن الفضل درجات، فكل علاقةٍ تحمل في داخلها رصيدًا، إن حُفظ نما، وإن أُهمل فني، والعاقل من يودِع في قلوب الآخرين أكثر مما يسحب، لأن البقاء الحقيقي ليس في الزمن، بل في الأثر.

ويبقى السؤال الأقرب:

ما الرصيد أو الخزنة أو الحصّالة أو الرابط الإنساني الأوثق بين القيم والمشاعر الذي تملكه، والذي به تستمر علاقاتك وتستعيد به الثقة كلّما ضعفت؟

فكما تحفظ الخزائن الأموال من الضياع، وتحمي الحصّالة ما جُمع بجهدٍ وصبر، يحفظ الفضل ما تراكم بين الأرواح من جميل المواقف وبذور الوفاء وصفاء النيّة، إنه النظام الأخلاقي الذي يمنع العلاقات من الإفلاس، ويضمن استمرارها رغم تغيّر المواسم.

فالتعارف في أصله ليس تبادل أسماءٍ أو ملامح، بل بناء أرصدةٍ من الودّ والمعرفة والإحسان تُثمر انسجامًا وسلامًا واستمرارًا.

فما من علاقةٍ على وجه الأرض إلا وهي بحاجةٍ إلى رصيدٍ من الفضل، يُصرَف عند الأزمات، ويُودَع عند الصفاء، تمامًا كما تُدار أرصدة الحياة بين الناس.

ليست صلةُ الدم وحدها ما تصنع القرب، ولا الزمالة ما تخلق الانسجام، بل المساحات التي نتقاطع فيها دون اصطدام.

حين يشاركك أحدهم رؤيتك للأشياء، أو يقدّر ما تقدّره، أو يفهم صمتك قبل كلامك، فاعلم أنك وجدت رابطًا يستحق أن تُحافظ عليه.

وعندما يغيب ذلك الرابط، يبدأ الانفصال النفسي قبل الفراق المادي، لأن الإنسان بطبعه يبحث عمّن يشبهه في شيء، لا من يطابقه في كلّ شيء.

فالقيم المشتركة أرصدةُ القلوب وحصّالاتُ الذاكرة، ليست رفاهيةً عاطفية، بل ضرورةٌ إنسانية، فهي التي تمنح العلاقات طاقتها واستمرارها، وتُبقي على حرارة الودّ في زمنٍ يبرد فيه التواصل وتتسارع فيه الخطى.

إنها الجسر الذي يعبر به أحدنا إلى الآخر دون خوفٍ من الغرق، والمعيار الذي نقيس به عمق الصلة لا بطولها، ونقاءها لا بعدد سنواتها.

هي طوقُ النجاة للعلاقات، وأحدُ أهمّ الأسرار التي تحفظ الفضل حتى تستقيم وتعدل الامور.

إنها الحسّ الإنساني الذي يعيدنا إلى التوازن كلّما أوشكنا على التيه، ويذكّرنا بأن الاستمرار لا يقوم على الكمال بل على التلاقي، وأن الرابط في العلوم وطبيعتها كما في الحياة هو ما يجعل المعادلة ممكنة، والعلاقة متوازنة، والإنسان أكثر إنسانية.

فما الحياة إلا معادلةٌ من العطاء والفضل، وكما تتّحد العلوم في قواسمها لتنتظم، تتآلف النفوس في قيمها لتستقيم.

فإن أفضلتَ على أحدٍ فلا تبح به قولًا، بل، اجعل فعلك أثرًا يحدّث عنك بصمت، فكلّما زادت نقاط التلاقي فيها، اقتربنا من إنسانيتنا أكثر.

عبدالله عمر باوشخه